أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا . فإن كان فى الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف فى الكونيات ، أما أمره الثانى فى اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقى مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منهجاً لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكذلك ـ أيضاً ـ نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتو لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولمثل هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التى تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدى إلى النفع الحقيقى ..

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وكأن الآية التى أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [سورة الإسراء]

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون فى اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك تجد أن كل الحجج التى وقفوا بها أمام دعوة الرسول هى أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويدخل بما جاء به - ويزعم أنه من عند الله - الفتنة فى الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : مادام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا؟ . وهل تأبوا هم على السحر؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر؟ . إنهم فى ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ماهو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريا ؛ ففى الرأى الجماهيرى يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سورة سبأ]

أى لا تأتوا فى أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول ﷺ بالجنون ؛ لأن قولكم فى الهياج الجماهيرى غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلاً منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منهما واحد أمام الآخر لا يُفضح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتى الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعاليًّا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ فى النفس تصير هى الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة . وفى أعمال المعانى نسميها خلقاً ، وفى أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التى تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن فى الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد - على سبيل المثال - من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم فى الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه فى وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب فى استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يأتى ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات

الله ثمنا قليلا ، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. (١٢٤) ﴾

[سورة الأنعام]

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله ، ومن ناحية المال كان غنيًا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسنّ ولأننى أكثر مالاً ولأننى أكثر ولداً . وهو قد قاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد ﷺ ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [سورة الزخرف]

ولنسمع رد القرآن :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [سورة الزخرف]

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوبية . لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية ، انكم تميزتهم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس . ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً ، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد .

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، كسوا فكسونا، ذبحوا فذبحنا. حتى صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحي إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً الا أن يأتينا بوحي كما يأتيه، ومعنى كفرسي رهان، أي فحين تنطلق الخيل في السباق في وقت واحد كانوا يدقون عوداً في الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له: حاز قصب السبق، وعود القصبة هو غاية المشوار، حتى لا يقولن أحد لقد سبقني بخطوة أو غير ذلك.

وهنا يقول الحق: (وإذا جاءتهم آية).

وانظر إلى كلمة «جاءتهم آية»، فمرة يقول: (قد جئناك بآية من ربك)، ومرة يقول: «جاءتهم آية»، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجيء.

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ويقول الله لهم رداً عليهم: لا تقترحوا ذلك على الله؛ لأن «الله أعلم حيث يجعل رسالته»؛ لأن الرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً في الجميع، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير. والغير يريد أن يأتي له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس. والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به. ويأمر سيدنا رسول الله ﷺ قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس، أي أنه لم ينتفع به في الدنيا؛ لذلك هو مأمون على الرسالة، ولم يرُد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده. وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس. فالرسالة تكليف، والنبوة ليس جزاؤها هنا، بل من عظمة الجزاء أنه في الآخرة، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ في بيعة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك. قال: تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا.

قالوا له: فما لنا؟ أنت اشترطت لنفسك، فما لنا إن نحن وفينا؟. ماذا قال الرسول ﷺ؟. قال: لكم الجنة. هذا هو الثمن الذي عنده،

فـمن يريد الجنة يأتى إلى الإيمـان ، ومن يريد مـا هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان . مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابى والوسائد وتجلسون عليها ، وبشرهم بالكثير ، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك خيراً فى الدنيا مع الإسلام ؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه فى قلة ، لذلك أعطاهم الجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له : ماذا إن نحن وَفَّينا؟ . قال : لكم الجنة . وكأنه ﷺ يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح ، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته .

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ .. (١٢٤) ﴾ [سورة الأنعام]

وحين نتأمل قولهم : (لن نؤمن) نجد أن فى هذا القول إصراراً على عدم الإيمان ، أى لن نؤمن حتى فى المستقبل إنهم تحكموا فى المستقبل . ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر ، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح . ومن العجيب أن العبارة التى ينطقون بها هى عبارة مهزوزة لاتستقيم مع منطق الكفر منهم ، قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله ، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله ، والأصل فى الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله ﷺ خاتم الرسل ، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء ، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم ، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله فى الاختيار؟ .

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية ، حسية مرئية ، وهى وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم ، إلا إنه لا ديمومة لها ، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية ، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى ، وكذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله . وهذه رسالات لزمن محدود وفى قوم محدودين ، لكن الرسول ﷺ جاء ومعه المنهج المعجزة الباقى إلى قيام الساعة ، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسى لايتكرر ، بل ينتهى ، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة . فلا بد له من آية باقية إلى قيام الساعة ؛ لذلك كانت الآية فى المعنويات والعقليات التى لاتختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان ،

لكنهم أرادو معجزة حسية، وأخرى عقلية، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية، فحسم الحق الأمر وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولو نظروا إلى كلمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، فكلمة «أعلم» تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً ﷺ؛ لأن الذين واجههم ﷺ بأمر الدعوة، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة، أو آمنوا به بمجرد الإخبار؟ . لقد آمنوا بمجرد الإخبار؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض، ولابد أن يكون مأمونا على خبر السماء؛ لأنه لم يكذب عليهم فى أمر الأرض، فكيف يكذب فى أمر السماء؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال: صدقت، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته، وقالت أول استنباط فقهى فى الأسلام. وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحى الحديث، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هى استنباطات للعقل الفطرى السليم البعيد عن الأهواء. إنه يقدر أن يستقرىء الأمر ولابد أن يهتدى، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذى أصابه مرض أو مسٌّ من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويعين على نوائب الدهر، وقالت له: والله لايخزيك الله أبداً.

إذن فقد جاءت بالمقدمات التى ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله، وكل المقدمات مفاخر، كلها خلق عظيم، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتى منهج السماء، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير، وكان هذا أول استنباط فقهى فى الإسلام. ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له؟ لأنه ستمر به فترة لايحتاج فيها إلى زوجة فقط، بل إلى ناضجة، ذلك النضج الكامل الذى تستقبل به مسائل النبوة، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتى له حكمة خديجة فى الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام؟

«الله أعلم حيث يجعل رسالته»؟، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءً حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول.

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية في الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتي ليقول : إن الصَّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتيًّا ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان في نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذي تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذي يكون في البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعاني النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهمو   أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذي لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمكرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار في التكليف بل أوجد ذلك في إطار :

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة: «يصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا: نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم.

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريرى لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم فى الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك؛ فيقول سبحانه:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وماذنب المكلف إذن؟.

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان: المعنى الأول: الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر. فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذى آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهى.

يقول بعض الصالحين: «اللهم إني أخاف ألا تثيبني على طاعة، لأني أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول: لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نودى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتي وقت الصلاة: «أرحنا بها يابلال».

وهذا غير مايقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم: هيا نصل لنزيحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لابالمحبة والعشق. أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم: مادامت الصلاة تريح القلب، فلأذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لى متقربا إليه بالنوافل، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لاتنهض به. فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقي، ولله المثل الأعلى.

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة.

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجوز أنه شاق عليك؛ لأنه يخرجك أولاً عما ألفت من الاعتياد. فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول: إن هذه المشقة إنما يريد ا بها لى حسن الجزاء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًا لك، وكان واحد من الصالحين - كما قلت- يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به» أى يصبح ما يشتهيه موافقا لمنهج الله، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى.

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان: هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة.

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

« فمن يرد الله أن يهديه » أي يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ « افعل » و « لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بى وجئتنى ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾
(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدّى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله فى ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[1] .

أى بالأمور التى تزيد على ما كلفه فى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أى يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مُثُلاً للناس ، فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام علىّ - رضى الله عنه وكرّم الله وجهه - ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) رواه البخارى .

واختار الإمام عليّ مقياساً للإيمان فى نفس كل مؤمن ، وقال له : إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب .

إذن فـ «يشرح صدره للإسلام» أى يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يعشقه فى التكليف . ويهديه الله إلى طريق الجنة ، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج ، ولذلك نجد القرآن يقول ؛ عمن ضلوا :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [سورة النساء]

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [سورة محمد]

وقد يتساءل إنسان : كيف يهدى الله من قتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل؟ . نقول : انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجزاء «سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم» .

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء ، من يحسن العمل يُجزه الله الجنة ، أما من يسىء فله عذاب فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ [سورة الأنعام]

وهل هذا تجن من الله على خلقه؟ لا ، لأنه مادام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته، فحين يقال : ضاق البيت بى وبعيالى، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين، وكان البيت متسعاً. ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت. وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل. ويقال : صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على لغتين : فالحق يقول :

﴿ .. وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [سورة النحل]

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيِّق، والحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ .. (١٢) ﴾ [سورة هود]

فما المراد من «ضائق»، و«ضيِّق»، و«ضيْق»؟. نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين : القلب والرئة، والرئة هى الجارحة التى لا تستمر الحياة الا بعملها؛ فقد تبطيء الأمعاء مثلا، أو تتوقف قليلا عن عملها، ويتغذى الإنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير.

ولقد قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد يملّك بعضاً قوت بعض. وأقل منه أن يملّك بعضاً ماء بعض، لكن أيملّك أحداً هواء أحد؟ لا؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملّك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله : «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثانى أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فينهج؛ لأن الحيّز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً، ينهج أيضاً؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعاندة جاذبية الأرض، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نزول السلم مريحاً؛ لأن فى النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان صدره ضيق» أى أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره.

«ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً» والحرج معناه الحجز عن الفعل، كأن نقول حرّجت على فلان أن يفعل كذا، أى ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدى هذا العمل. (كأنما يصّعد فى السماء).

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته. فالجهات التى تحيط بأى شىء ست: هى فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشى ماذا يعنى؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل فى ذاته، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية.

«ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد فى السماء» وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها؛ فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والسماء هى كل ماعلاك فأظلك ، فالجو الذى يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثانى لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافى لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد مايمنع استنباط مايتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب .

لذلك نقول : أبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شىء وهى غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿ .. كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ . و « الصراط » هو الطريق السّوى ، والطريق السّوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا ـ نحن البشر ـ نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كأداء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق فى الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نمشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيًّا ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية